الهجرة النبوية

٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية

ولما رأت قريش هجرة أصحابه ، وعرفوا أنه صار له أصحاب من غيرهم ، حذروا من خروجه وعرفوا أنه أجمع لحربهم ، فأجمعوا على قتل رسول الله ، وقالوا ليس له اليوم أحد ينصره وقد مات أبو طالب ، واتفقوا أن يأتوا من كل قبيلة بغلام نهد ، فيجتمعوا على رسول الله فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد . فلا يكون لبنى هاشم قوة بمعاداة جميع قريش ، وهذا آخر رأى اجتمعت كلمتهم عليه ، فقد اجتمعوا فى دار الندوة فى يوم سبت ، وكانوا مائة رجل ، يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله حين خافوه ، فقال أبو البخترى : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، حتى يصيبه ما أصابهم — فقال آخر : والله لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ماهذا برأى ، وقال آخر : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فاصلحنا أمرنا والفتنا كما كانت ، فقام من قال : ماهذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيغلب بذلك عليهم من قوله حتى يتابعوه عليكم ، ثم يسير

بهم اليكم حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأيا غير هذا. فقام أبو جهل فقال: والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا وما هو؟ قال أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى جلداً نسيباً وسيطاً، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فانهم اذا فعلوا ذلك، تفرق دمه فى القبائل جميعا، فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم، فاستحسنوا رأيه وتفرقوا على أن يفعلوا ذلك الذى أشار به أبو جهل، وأتعدوا الليلة التى يجتمعون بها عند باب الرسول ليقتلوه.

ولما جاءت الليلة الموعودة تربصوا بباب رسول الله حتى ينام فيقتلوه، وعلم رسول الله من وحى السماء بما دبروا، إذ جاءه جبريل فقال: لا تبت على فراشك هذه الليلة، فأمر عليا فنام مكانه وتغطى ببرده الاخضر، فكان على أول من شرى نفسه فى الله، ووقى بها رسول الله. ثم خرج اليهم رسول الله وقد أخذ الله على أبصارهم «ناموا»، فلم يره أحد منهم، فجعل ينثر التراب على رءوسهم وهو يتلو الآيات الاولى من سورة يس، ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب وهو الغار غار ثور، فأتاهم آت فقال ما تنتظرون ههنا؟ قالوا محمد، قال قد خيبكم الله، قد والله خرج محمد عليكم، ثم ما ترك منكم رجلا حتى وضع على رأسه ترابا وأنطلق لحاجته، فما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فاذا عليه التراب، ثم جعلوا ينظرون عليا على الفراش فيحلفون أنه رسول الله، حتى

أصبحوا فقام على رضى الله عنه عن الفراش ، فلما رأوه جاءوا فقالوا له أين ابن عمك ؟ قال : قلتم له أخرج عنا نخرج عنكم ، فطلبوا الاثر فلم يقصوا عليه ، وفى هذا نزل قول الله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ...)

هذا — ولم يقصد رسول الله غار حراء ، لما عهدوا من تحنثه هنالك فيطلبوه فيه ، وليضللهم أيضا .

أما رسول الله فما عتم أن ذهب من الغار متقنعا إلى بيت أبى بكر ظهرا ، وكان لايخطىء أن يأتى هذا البيت أحد طرفى النهار ، إما بكرة واما عشية ، فلما رآه أبو بكر قال ماجاء رسول الله هذه الساعة إلا لأمر حدث ، فتأخر له عن سريره فجلس وقال : أخرج عنى من عندك ، قال : يارسول الله هما ابنتاى ، فقال فانه قد أذن لى فى الخروج والهجرة ، قال أبو بكر الصحبة يارسول الله ، قال نعم ، فبكى أبو بكر من الفرح ، وكان من قبل يستأذن رسول الله فى الهجرة فيقول له : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ، فطمع أن يكون رسول الله إنما يعني نفسه حتى قال ذلك ، وكان أبو بكر ذا مال فابتاع راحلتين فاحتبسهما فى داره يعلفهما أعدادا لذلك ، وقال يارسول الله إن هاتين راحلتين قد كنت أعددتهما لهذا ، فاستأجرا رجلا من بكر يقال له عبد الله بن أريقط (وكان مشركا) يدلهما على الطريق ، فدفعا اليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما

لم يعلم بخروج رسول الله إلا أبو بكر وأهله ، وأما على فقد أخبره الرسول بذلك ، وأمره أن يتخلف بمكة حتى يؤدى عن رسول الله

الودائع التى كانت عنده للناس

ثم خرج رسول الله وأبو بكر ليلا من خَوْخة (باب صغير) فى ظهر بيت أبى بكر ، وعمدا إلى غار بثور فدخلاه ، وهو جبل بأسفل مكة يرى البحر من أعلاه، لأن ارتفاعه نحو ميل، وهو على مسير ساعة من مكة فى طريق اليمن ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما مايقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه وراعى غنمه أن يريحها عليهما فى الغار ليلا ، ليأخذا حاجتهما من لبنها ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما

وأتى أبو بكر الغار ليلا فدخله قبل الرسول لينظر أفيه سبع أو حية ، يقى رسول الله بنفسه ؛ أما عبد الله بن أبى بكر فقد قام بما عهد اليه خير قيام ، ولذلك كانت أخبار القوم عند الرسول وصاحبه ؛ وأما عامر بن فهيرة فكان يرعى مع الرعيان نهارا ، فاذا أمسى أراح عليهما الغنم فاحتلبا وذهبا ، فاذا غدا عبد الله من عندهما إلى مكة ، أتبعه عامر بالغنم ، حتى يعفى عليه

ولما فقدت قريش رسول الله طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة إثْره فى كل وجه، وشق عليهم خروجه وجزعوا

وظل الرسول وصاحبه ثلاث ليال بالغار حتى سكن عنهما الناس، وقد ألهم الله حمامتين وحشيتين فوقعتا أو وقفتا على وجه الغار ، وألهم العنكبوت فنسجت على بابه ، فكان ذلك مما صد المشركين عن دخوله حينما ذهبوا باحثين، وقال قائل منهم ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف:

وما أربكم فى الغار ؟ ان فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد . وقالوا أيضا :
لو دخل لكسر البيض ولتفسخ العنكبوت

عناية ضل كيد المشركين بها وما مكايدهم إلا الأباطيل
إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما كأن أبصارهم من زيغها حول

قال أبو بكر وهما يريان القوم من داخل الغار : لو ان أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا ، فقال له الرسول : ماظنك باثنين الله ثالثهما ؛ ولما رأى أبو بكر القوم وبخاصة القافة منهم ، اشتد حزنه على الرسول ، وقال له : ان قتلت أنا فانما أنا رجل واحد ، وان قتلت أنت هلكت الأمة ، فقال له الرسول : لاتحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته وهى أمنته على أبى بكر ، وأيد رسوله بجنود من الملائكة ليحرسوه ويصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته

ثم جاء ذلك البكرى الذى استأجراه بالراحلتين ، فقدم أبو بكر أفضلهما ، فقال الرسول : لاأركب بعيراً ليس لى ، فقال هى لك يارسول الله ، قال لا ، ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال كذا وكذا ، قال : قد أخذتها به ، قال : هى لك يارسول الله ، فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر عبد الله بن فهيرة خلفه ، ليخدمهما فى الطريق ، وأخذ الجميع طريق الساحل أسفل من عسفان ،

ومروا بقديد على أم معبد الخزاعية ، فطلبوا لحما أو لبنا يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئا ، فاستأذنها رسول الله فى حلب شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فاذنت له فاعتقلها ومسح ضرعها وسمى الله فدرّت ، فشربوا منها جميعا ، ولما جاء زوجها وصفت النبى ﷺ اليه ، فقال هذا

صاحب قريش ، لو رأيته لاتبعته

أما قريش فقد عرجوا — وهم يفحصون عن الرسول — على دار أبي بكر ، فخرجت اليهم أسماء ، فقالوا : أين أبوك ؟ فقالت : لاأدرى فرفع أبو جهل يده — وكان فاحشا — فلطم خدها لطمة طرح من جرائها قرطها ، ثم انصرف ، ومكث آل أبي بكر ثلاث ليال لايعلمون أين توجه ، حتى سمعوا رجلا يتغنى بأبيات والناس يتبعونه إلى أعلى مكه وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه — رفيقين حلا خيمتى أم معبد

وهى امرأة من بني كعب من خزاعة ، فعلموا وجهة الرسول فى هجرته مع أبي بكر وهى المدينة ، وسمعت قريش ذلك المغنى فأرسلوا إلى أم معبد وهى بخيمتها فسألوها : هل مر بك محمد الذى من حليته كذا ؟ فقالت : لاأدرى ماتقولون ، وانما ضافني حالب الشاة الحائل (التى لم تلقح سنة أو سنتين أو أكثر)

وكان أبو بكر قد احتمل ماله كله معه وهو خمسة آلاف أوستة آلاف درهم ، فلما علم أبو قحافة دخل على آل أبي بكر فقال : انى لأرى انه قد فجعكم بماله مع نفسه ، فقالت له أسماء : كلا ياأبت ، انه قد ترك لنا خيرا كثيرا ، ومازالت بذلك الشيخ حتى سكن

وجعلت قريش — بعد أن قصد الرسول قصد المدينة — مائة ناقة لمن يرده عليهم ، فطمع سراقة بن مالك المدلجى الكنانى أن تكون له ، فأخذ فرسه وسلاحه واستقسم بأزلامه وقداحه ، فعلى الرغم من أنه كان يخرج له السهم الذى يكره ، اقتفى أثر رسول الله وتبعه ، فعثر

به فرسه فى الطريق جملة مرات وكانوا يتشاءمون اذا عثرت أفراسهم، فلم يرعه ذلك ، ولم يثنه عن متابعة الرسول ، حتى أدركهم ، وكان منهم بحيث يراهم ، فعثر به فرسه عثرة ذهبت منها يداه فى الارض ، وسقط عنه سراقة ، ثم حاول الفرس تخليص يديه وعالج ذلك بشدة حتى انتزعهما وتبعهما دخان كالاعصار ، فذعر سراقة حينئذ ، وعلم أن الرسول قد منع منه ، وملأ قلبه الرعبُ . فما هو الا أن أخذ يناديهم ويعرفهم باسمه ويطلب الامان ، ويقول : انظروا الىّ أكلمكم ، فو الله لا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، أعلمُ أن قد دعوتما علىّ ، فادعوا لى ، ولكما أن أرد الناس عنكما ولا أضركما ، فوقفا له ، فقال الرسول لأبى بكر . قل له : وما تبغى منا ؟ قال : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك . فكتب له كتابا وألقاه إليه فأخذه فجعله فى كنانته ، ورجع الى القوم فلم يذكر شيئا ثلاث ليال ، ثم أخبرهم فلامه أبو جهل حين رجع بلا شىء ، فقال له سراقة .

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لامر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

ثم كان لكتاب سراقة هذا شأن بعد فتح مكة وحين فرغ الرسول من أمر حنين والطائف ، إذ تقدم به الى رسول الله هنالك ، فقبله الرسول ورضى اسلامه .

أما رسول الله فقد مضى نحو الساحل حتى عارض الطريق العام عند قديد ، ومازال يغذ السير حتى قدم قباء ، على بنى عمرو بن عوف ساعة الضحى — وكان أهل المدينة وماحولها ينتظرون بها على أفواه

الطرق ، حينما سمعوا بمخرجه من مكة ، حتى اذا حميت عليهم الظهيرة آووا إلى بيوتهم يستظلون بها، حتى كانت الساعة التى قدم فيها، والقوم فى مظالهم بالبيوت ، رآه يهودى، فلم يملك اليهودى نفسه ، وصاح بهم يابنى قَيْلة (الجدة الكبرى للأنصار) هذا جَدّكم (حظكم) قد جاء، فخرجوا سراعا بأسلحتهم ، فاذا هو فى ظل نخلة ، وأبو بكر يظله بردائه فعرفوه

عود - وأما على بن أبى طالب فأقام بمكة ثلاثة حتى أدى عن رسول الله الودائع ، برسول الله فنزل معه بقباء حيث نزل

وبقى رسول الله بقباء أياما ، وهنالك وضع أساس مسجد لبنى عوف ، وهو مسجد قباء ، أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم، ثم أخرجه الله إلى المدينة راكبا راحلته ، وكان أبو بكر شيخا قد أسرع اليه الشيب ، معروفا لأنه كان تاجرا يمر على أهل المدينة فى سفره ، ورسول الله لاشيب فيه (مع أنه كان أسنّ من أبى بكر) ولا يعرف، فقال رسول الله لأبى بكر أله عنى الناس ، فكان إذا لقيه لاق يقول من هذا معك ؟ فيقول : هذا يهدينى الطريق : فيظن السائل أنه يريد الطريق الحقيق وهو يريد هدى الاسلام ، ثم مالبث أن عرفه الناس ، فكانت كل قبيلة من الانصار تلقاه تقول : هلم الينا يارسول الله ، إلى العدد والعدة والمَنَعة فيقول : خلوا سبيلها فانها مأمورة :(لناقته) حتى مر ببنى عدى بن النجار ، فقالوا : يارسول الله هلم إلى أخوالك :(أخوال عبد المطلب) الى العدد والعدة ، فكرر ماقال لغيرهم ، فسارت الناقة غير بعيدة ، ورسول الله واضع لها زمامها ، لايثنيها حتى بركت أمام دار مالك بن النجار ، فى مربد (مايجفف فيه التمر) ليتيمين من بنى

رافع ، ثم ثارت حتى بركت على باب أبى أيوب الانصارى ، ثم ثارت فبركت فى موضعها الاول ، فنزل ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله ، فوضعه فى بيته ، ونزل عليه الرسول ، حتى بنى مسجده فى المربد ، أبتاعه من ذينك اليتيمين ، وكان يعمل فى ذلك بنفسه ليرغب المسلمين فى العمل ، فعمل الانصار والمهاجرون ، ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن ، فقال قتلونى يارسول الله ، فقال له : ليسوا بالذين يقتلونك . انما تقتلك الفئة الباغية ، وسقفه بالجريد ، وجعل عمده خشب النخل . وجعلت قبلته الى القدس ، حتى حولت القبلة الى الكعبة .

ولما نزل رسول الله على أبى أيوب نزل فى السفل ، وأبو أيوب فى العلو ، فرغب إلى رسول الله ان ينزل فى العلو ، فقال له الرسول : ارفق بنا وبمن يغشانا . وفرح أهل المدينة بقدوم النبى ، ولعبت الحبشة من أهليها بحرابهم ، وصعدت ذوات الخدور على الاجاجير (الاسطحة) عند قدومه يقلن :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... مادعا لله داعى
أيها المبعوث فينا ... جئت بالامر المطاع

وكذلك قيل هذا عند قدومه من تبوك . وتفرق الغلمان والخدم فى الطرق ينادون : جاء محمد رسول الله ،

وقد ظل النبى فى بيت ابى ايوب سبعة أشهر ، حتى بنى بيوت نسائه بجوار المسجد ، وكان باب بيت عائشة يواجه الشام ، وكان قد أرسل زيد بن حارثة وابا رفع إلى مكة فقدما بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت

زمعه وأسامة بن زيد وأم أيمن ، وسبقت رقيه مع عثمان ؛ وتركت زينب عند زوجها أبي العاص حتى أسر ببدر ، فلما منّ عليه الرسول أرسلها إلى المدينة .

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله . فلم يبق بمكة منهم أحد ، الا مفتون أو محبوس ، ولم يوعب أهل هجرة من مكة باهلهم وأموالهم إلى الله وإلى رسوله الا أهل دور مسمون ، منهم بنو جحش وبنو مظعون ، فان دورهم أغلقت بمكة ، وغدا أبو سفيان على دار بني جحش فباعها ، فشكوا إلى رسول الله ، فقال لعبد الله بن جحش ، الا ترضى ياعبدالله أن يعطيك الله بها دارا خيراً منها في الجنة ؟ قال بلى ، قال فذلك لك ،

واستجمع لرسول الله اسلام هذا الحي من الانصار ، فلم تبق دار من دورهم إلا أسلم أهلها ، ماعدا جماعة من الاوس ، فانهم أقاموا على شركهم .

ثم كتب ﷺ كتابا بين المهاجرين والانصار ، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم ، واشترط لهم .

وقد جعل في هذا الكتاب أو في هذه المعاهدة المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان والد أحدهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وأنه من تبعنا من يهود فان له النصرة والأسوة ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين .

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين

دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ (يُهلك) إلا نفسه وأهل بيته ... وهكذا بقية اليهود دمع مواليهم ، لهم ما ليهود بني عوف حتى يهود الأوس ، وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر .... وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ... فما أبر هذه المعاهدة وأوفاها .

المؤاخاة — وآخى بين أصحابه من المهاجرين والانصار بعد قدومه ، بأشهر ، وقال تآخوا في الله أخوين أخوين ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، وليشد أزر بعضهم ببعض ، وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي ، وكان حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وكان جعفر ابن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، مع غياب أولهما في الحبشة ، وكان أبو بكر وخارجة بن زهير من الخزرج أخوين ، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك من الخزرج أخوين ، وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، وقد عرض الثاني على الأول نصف ماله ، وكان له زوجتان ، فقال : اختر احداهما اطلقها وتزوجها ، والزبير بن العوام وسلامة بن سلامة أخوين ، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت من بني النجار أخوين ، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين ، وهكذا حتى انتهى الرسول من إيجاد هذه الرابطة التي ظلت على الحق والمواساة والتوارث وكانوا (٩٠) رجلا ، من كل طائفة (٤٥) حتى أنزل الله تعالى « وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب

الله » فانقطعت المؤاخاة فى الميراث فقط ، ثم جعل المسلمين إخوة فى التوادد وشمول الدعوة والمناصرة فى قوله « إنما المؤمنون إخوة »

ولما اطمأن رسول الله بالمدينة واجتمع اليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الانصار ، واستحكم أمر الاسلام : شرع الاذان وفرضت الصلاة والزكاة والصيام وصرفت القبلة إلى المسجد الحرام بعد مقدمه بنحو سنة ونصف . وقامت الحدود ، وشرع الحلال والحرام ، وتبوأ الاسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الانصار هم الذين تبوءوا الدار والايمان فقام شعراؤهم يتغنون بالقصائد ، يذكرون فيها ما أكرمهم الله به من الاسلام ، وماخصهم به من نزول رسول الله عليهم ؛ فنصبت لذلك أحبار اليهود لرسول الله العداء ، بغياً وحسداً وضغنا ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ؛ وانضاف اليهم رجال من الاوس والخزرج ؛ ممن كان عسى على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق ؛ على دين آبائهم ، من الشرك والتكذيب بالبعث ؛ إلا أن الاسلام قهرهم بظهوره . واجتماع قومهم عليه ، فتظاهروا بالاسلام ، واتخذوه جنة من القتل ، ونافقوا فى السر وكان هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبى ، وجحودهم الاسلام ، وكان احبارهم هم الذين يتعنتون فى اسئلة الرسول ليلبسوا الحق بالباطل ـ ومنهم حُيَيُّ بن أخطب ، وأخوه أبو ياسر ، وكنانة بن الربيع بن أبى الْحُقَيْق ، وأبو رافع سلاّم بن ابى الحقيق ، وسلاّم بن مشكم وكعب بن الاشرف ، وعبدالله بن سلاّم ؛ وكان جدهم (اعظمهم حظا) وأعلمهم كعب ابن اسد ، غير ان عبدالله بن سلام اسلم وأمر أهله بالاسلام وكتم ذلك عن اليهود ، ولاذ برسول الله فآواه حتى جاء الاحبار يسألون رسول

متعنتين فخرج إليهم ابن سلام وشهد الشهادتين وأعان اسلامه واسلام أهل بيته ، ومثله مخيريق الحبر العالم الغنى الذى كان يعرف رسول الله بصفته . فلما كان يوم أحد عرض على قومه القيام مع النبى تنفيذا للمعاهدة فاعتذروا بالسبت ، فقال لا سبت لكم . وأخذ سلاحه ثم جاء رسول الله ، وأوصى الى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم ، فاموالى لمحمد يصنع فيها ما أراده الله ، فقتل وقبض رسول الله أمواله ، فعامة صدقات رسول الله بالمدينة منها . أما من عداهما ، فكانوا أهل العداوة للرسول وصحبه ، وأصحاب المسألة والنصب لأمر الاسلام الشرور ليطفئوه .

وكان ممن انضاف الى اليهود مالك بن الاوس ، ونبتل بن الحرث الذى قال الرسول فى شأنه : من أحب أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحرث ، وهو الذى كان يقول : إن محمداً أذن ، وعبد الله ابن أبى ابن سلول من بنى عوف من الخزرج ، وكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون ، وهو الذى قال فى غزوة بنى المصطلق : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل . وفى قوله هذا نزلت سورة المنافقين بأسرها .

وفى هؤلاء الأحبار من اليهود ، وفى المنافقين من الأوس والخزرج نزل صدر من سورة البقرة الى المائة منها .

هذا وبعد سبعة عشر شهرا من مقدمه ﷺ صرفت القبلة الى الكعبة . فثار اليهود ، وقالوا له أرجع الى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك ، وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه ، فأنزل الله القرآن

بتسفيههم ، وغاظ اليهودَ ماكان من اجتماع كلمة الاوس والخزرج بعد تفرقهم ، فدسوا من ذكّرهم « وهم مجتمعون فى بعض أنديتهم » يوم بعاث ، وماقيل فيه من الشعر ، فتنازعوا وتفاخروا حتى خرج اليهم رسول الله وقد تواعدوا السلاح والحرب . فذكرهم بالله وبالاسلام . فتابوا إلى رشدهم . وعلموا أنها نزعة من نزعات الشيطان . وكيد من عدوهم فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً . ثم أنصرفوا مع رسول الله مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم .

ثم دعا رسول الله اليهود إلى الاسلام ورغبهم فيه وحذرهم غِيَرَ الله ، فأبوا عليه ، وكفروا بما جاءهم به ، فكف عنهم إلى أن نقضوا عهده فقاتلهم على ماسيجىء

واعلم أن رسول الله ﷺ قدم الى المدينة وسيد أهلها عبدالله بن أبى ابن سلول ، لايختلف عليه فى شرفه اثنان ، لم تجتمع الاوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الاسلام ، غيْره ، فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملكوه عليهم . فجاءهم الله تعالى برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف عنه قومه الى الاسلام ضغن . ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكا . فلما أن رأى قومهُ قد أبوا إلا الاسلام ، دخل فيه كارها ، مصراً على نفاق وضغن ، وكان له مع الرسول شئون إلى أن مات منافقا

هذا وكان قدوم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لثنتى عشرة مضت من شهر ربيع الأول ، وهو يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة . وذلك بعد أن بعثه الله بثلاث عشرة سنة . فأقام بها بقية هذه السنة

والمحرم من السنة التالية . ثم خرج غازيا فى صفر . أى بعد سنة كاملة من مقدمه .

كلمة

قد اختار النبى لاصحابه ـ حينما اشتد عليهم الاذى ـ بلاد الحبشة ليهاجروا اليها ، وعلل لذلك بقوله : (لان فيها ملكا لا يظلم عنده أحد) فلماذا لم يشر عليهم بالهجرة الى يثرب بادىء الرأى ، أو إلى نجد أو إلى الروم أو إلى فارس ؟

والتعليل لهذا يظهر لدى التأمل فيما نقصه عليك :

(١) أما أهل يثرب إذ ذاك ، فقد كانت لهم مع قريش علاقات اقتصادية واسعة ، لافرق بين العربى واليهودى منهم ، فخشى النبى أن يجاملوا أهل مكة ، فلا يؤوا المهاجرين ولا يقوموا بحمايتهم ، لئلا يؤثر ذلك فى تجارتهم ، وبخاصة لان النبى لم يقدم الى ذلك المقدمات المهدات ، على أن اليهود من أهل يثرب ، قد بدت منهم العداوة والبغضاء للنبى منذ أوفدت اليهم قريش وفدا ـ لانهم أهل الكتاب الاول ـ يسألونهم رأيهم فيه ، ويتلقون منهم الاسئلة التى زعموا أنهم يتحدون بها رسول الله ويعجزونه .

(٢) وأما أهل نجد ، فكان لقريش من المهابة فى نفوسهم مايدفعهم إلى التعاون مع قريش على النفرة من المهاجرين ، وهذا الى مابينهم وبين قريش من معاهدات اقتصادية ودينية ، فبنو عامر بن صعصعه كانوا من الحمس كقريش .

(٣) وأما الروم والفرس واتباع الفريقين من الغسانيين والمناذرة ،

فكانت الاحوال الداخلية عندهم مضطربة اضطرابا لا يؤمن معه على من يهاجر اليهم ، وبخاصة إذا لحظنا أن من بين عوامل الاضطراب الفوضى الدينية ، التى جعلت الناس فى الدولتين شيعا متعادية متناحرة ؛ ففى فارس كانت نزعات اله الخير واله الشر : وفى الروم كانت فتن العقيدة فى أصل المسيح . فكيف يتأتى لقوم اختلفوا فى دينهم ، ان يؤوا أهل دين جديد ويقوموا بحمايتهم ، وفيهم من لا يستطيع حماية نفسه ممن يخالفه فى عقيدته؟

(٤) أما الهجرة إلى يثرب بعد ذلك فقد كانت نتيجة ملازمة لامور حدثت فى وقتها ، فقد انتهز المشركون موت أبى طالب ، وقالوا ذهب ناصره وحاميه ، ونالوا من الرسول مالم ينالوه فى حياة عمه ، وبالغوا فى أذيته وايذاء أصحابه ، حتى اضطروه إلى الاستنصار بقبائل العرب على قومه ليحموه حتى يبلغ رسالات ربه ، على ماعلمت ، فوجد بعد اللتيّا والتى طلبته التى كان ينشدها فى النفر الذين اجتمع بهم من الاوس والخزرج فى مواسم الحج ، فقد مهد معهم الطريق الذى أدى اخيرا إلى أن يبايعوه فى العقبة الآخرة على مناصرته ، وحمايته هو ومن تبعه إذا هاجر إلى بلدهم ، وكان من أهم العوامل التى دفعتهم إلى المسارعة بهذه البيعة ، ما كانت تتوعدهم به اليهود من حين إلى حين كما سلف

والخلاصة أن فرصة الهجرة النبوية إلى المدينة لم تحن الا أخيرا ، وبعد أن أظهر أهل يثرب تمام الاستعداد لحماية النبى وأصحابه ؛ أو بعبارة أخرى ، لحماية الدعوة الاسلامية حتى تتبوأ مكانتها ؛ وعاهدوه وعاقدوه على حرب الأحمر والأسود ، حتى يظهر الله الدين الاسلامى على الدين كله ولو كره المشركون

وبعد فهل تحققت أمانى المسلمين بهذه الهجرة وتم لهذا الدين الحنيف ماكان ينشده الداعى اليه ﷺ ؟

نعم ، لقد كان الاسلام بمكة يسير سيرا بطيئا ، فلم تك إلا عشية أو ضحاها والنبى بالمدينة ، حتى أسرع الاسلام ، فعم أطراف الجزيرة العربية ، ومنها انتشر إلى الامم الاخرى بسرعة لانظير لها فى التاريخ

وذلك أن رسول الله لبث بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو أهلها إلى الاسلام فلم يستجيبوا له ، واضلهم الله على علم فناصبوه الشر ، الامن وفقهم الله وهداهم وقليل ماهم ، وربما كان من أهم الاسباب فى تشددهم واستمساكهم بالشرك وعبادة الاوثان : ان قريشا كانوا الزعماء الدينيين للعرب عامة وكان لهم من وراء هذه الزعامة فوائد حسية ومعنوية ، فهم سدنة البيت الحرام ، والعرب تهوى إلى هذا البيت فى كل عام من كل فج عميق ، وهم أيضا نحتة الاصنام والعرب من قديم تعتبرها وتقدسها ، فاذا جاء الموسم عظمت تجارة قريش واتسعت أموالها اتساعا عظيما ، فلو أن قريشا اتبعت رسول الله ، لانهارت زعامتها من جهة ، وخسرت الاموال التى كان الوثنيون يؤدونها اليها من جهة أخرى

على أنه كان بين بنى أمية وبين بنى هاشم منافسة فى الشرف ، فخاف الامويون — وعلى رأسهم أبوسفيان — إن هم اقروا للنبى بنبوته ، أن يذهب صيتهم ، وتذهب بنو هاشم بالمفاخر كلها ،

لهذا وذاك حرصت قريش على ألا يكون للدين الاسلامى شأن بين ظهرانيهم ، فحاربوه وحاربوا أهله بكل مااستطاعوا من قوة ، لذلك كان سير الدين بمكة بطيئا وكان رسول الله اذ ذاك لايدعو الا إلى

اصلاح العقيدة، رجاء استئصال قواعد الشرك بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن . أما بعد ان استقر فى المدينة وكون الجبهة الاسلامية بالمؤاخاة بين المهاجرين والانصار ، والمعاهدة بين اليهود والمسلمين ، فقد أصبح مجال الدين أوسع من اصلاح العقيدة ؛ فتناول الحلال والحرام ، وبين الحدود والاحكام ، وشرع الاذان والجماعة والجمعة ، وأقام حركة التعاون على أساس متين يتبين فى فرض الزكاة والحض على الصدقات ، وتعيين حقوق الفقراء فى أموال الاغنياء ، وتكوين بيت مال للمسلمين تكون منه النفقة عند الطوارىء ، واخيرا تكوين جيش على استعداد تام لمقاومة قريش إذا استعدت لمناوأته أو وقفت فى طريق دعوته وانتشارها ، أو اعتدت على من أجاب الى الاسلام ، ولو كان لا يزال بينهم فى مكة ، وهذا هو الجهاد الذى شرعه الله للمؤمنين ، وفرضه عليهم بعد أن صاروا فى عز ومنعة ، ليستطيعوا أن يرهبوا به عدو الله وعدوهم ، ويصبح من يريد الاسلام فى مأمن من أن يضطهد أو يفتن ، وبهذا وحده دخل الناس فى دين الله افواجا ، وبهذا وحده سار الاسلام سيرا حثيثا .

وبعد فلك أن تقول : لولا اضطهاد قريش للنبى وصحبه ما كانت الهجرة ، ولو لم تكن الهجرة ، ما تجاوز الدين الاسلامى جدران مكة

شرع القتال

تمهيد — العادة طبيعة ثانية ، فكل من يتخلق بخلق ، أو ينشأ على عادة أو يعتنق دينا ، أو يلتزم عقيدة ، أو يتبع طريقة درج عليها اهلوه زمانا طويلا ، وورثوها ابناءهم جيلا فجيلا ، يعز عليه أن يتخلى عنها الى غيرها بسهولة ، خضوعا لحكم العادة ، واعتقادا بأن ماهو عليه هو الحسن ، وأن ماعداه هو القبيح ، الذى لايليق به .

من جراء هذا كان الناشىء فى حاجة شديدة الى من يؤدبه ويهذبه ، وينصح اليه ويعظه ، فاذا عصى قسى عليه ليزدجر ، وخوفه لينزع الى الطاعة ، ويتبع هديه ، ويقلع عن سيىء عاداته ، وماورثه مما ينفر منه العقل الحكيم .

والجماعات كالأفراد ، لاتتحول بدورها عما ألفت ، الا بعلاج على هذا المنوال ، تظهر فيه حكمة الحكماء ، وفطنة الربانيين ، وتجاريب الساسة والقادة ، وثمرة قواعد التربية وعلم النفس والفلسفة .

وانبياء الله ورسله ربانيون يتلقون الشرائع من الملأ الأعلى

والشرائع الالهية قواعد تربيية هى المثل العليا فى البيان والاقناع ، وليست من تجاريب الناس ، ولا هى بنت أفكارهم وانما هى صحف الله القيمة ، وكتبه المطهرة ، ورحمته المهداة الى خلقه (أيحسب الانسان أن يترك سدى؟) على يد من يصطفيهم من عباده

ومن هنا كانت حاجة البشر ماسة الى النبوة ، وكانت النبوة مفتقرة الى مايؤيدها من المعجزات وخوارق العادات ، التى تضاهى الافعال الالهية ، ويخرج جنسها ونوعها عن مقدور البشر ، لتكون دليلا على صدق النبي ووجوب طاعته .

وللشرائع السموية حدود وأحكام ، ففيها أمر ونهى ، وحظر واباحة ، وفيها الحلال والحرام ، والنصيحة والزجر ، والثواب والعقاب ، والوعد والوعيد

والحكمة والموعظة الحسنة ، وصاحب الشريعة الاسلامية هو محمد بن عبد الله النبي الامى العربى الذى أرسله الله تعالى الى الناس بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بأذنه وسراجا منيرا ، ليجمع بهديه القلوب المتفرقة ، ويخضع الى شريعته النفوس القاسية ، ويوفق بسنته الاحوال المختلفة ، ويسقط التنازع بين الناس فى الحقوق المتجاذبة ، ويأمر بطاعة الله وتوحيده ، وينهى عن معصيته والاشراك به ، ويعرفهم مايتعلق بحقوق العباد لتقديرها واحترامها ، فيتبعوا فى شأنها شرعه المسموع ، وينقادوا إلى دينه المتبوع ، الذى لاتختلف فيه الآراء ، ولاتتبع الاهواء ، فيكونوا على رغب فى الثواب يبعثهم على الخير ، ورهب من العقاب يكفهم عن الشر ، وهذه كلها لايوصل بغير الدين اليها ، إذ ليس فى طباع البشر أن يتفقوا على مصالحهم من غير وازع ، ولا أن يتناصفوا فى الحقوق من غير دافع ، لطبيعة الأثرة التى فى نفوس الناس ، وهى التى تجعلهم يحرصون كل الحرص على الاستئثار بالمنافع المختلفة ، وإن حرم سائر الخلق منها

إذا تمهد هذا فنقول : —

لما جاء رسول الله قومه برسالته كان موقفهم منه موقف الأمم السالفة من انبيائها ورسلها . فصدقه فريق هداه الله ، وكذبه فريق حقت عليه الضلالة ، وقيل له ماقد قيل للرسل من قبله ، وكانوا لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، قالوا لعن الله اليهود والنصارى ، لو أتانا رسول لنكونن أهدى من احدى الامم (فلما جاءهم نذير مازادهم الانفورا ، استكبارا فى الارض ومكر السيء) وكيف يخضع أبو جهل أو عتبة بن ربيعة أو غيرهما من أولى الامر فى قريش الى محمد بن عبد الله ، ذلك الفتى اليتيم الفقير الذى لايملك كفاف أهله ، وكيف يصبحون منقادين الى شريعته وهم سادة قومهم وقادتهم وذوو الكلمة العليا فيهم ، وهو لاجاه له ولامال ولاسلطان ولا سليقة فى الشعر ولا شيء مما يكسبه المكانة والمهابة حتى يرقى الى مستوى الآمر الناهى ؟ وهل يليق

بهم أن يتدينوا بدين يسوى بين الملوك والسوقة فى الحق ؟ بل عجبوا أن جاءهم منذ زمنهم ، واستدلوا بكونه بشرا على كذبه فى ادعاء الرسالة ، لاعتقادهم أن الرسول لايكون إلا ملكا .

ولما تقدم اليهم بمعجزته الباهرة وهى القرآن الكريم ، قالوا (إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون .... وقالوا أساطير الأولين أكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) (وإذا قيل لهم أسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا) ؛ وقد تحداهم الرسول بأن يأتوا بسورة من مثله فأعجزهم ، وعلموا أن القوة البشرية دون مكانته من البلاغة ؛ فكان ينبغى عليهم أن يعتبروا هذا العجز دليلا على أن القرآن من الله ، جاء على لسان رسول الله ، لكنهم لم يفعلوا

وقد علمت ماعاملوا به رسول الله فى مبدأ الدعوة ، وماكان من حماية عمه أبى طالب له ولدعوته ، وماكان منهم بعد موت عمه ، حتى اضطروه إلى أن يعرض نفسه على القبائل فى الموسم لايوائه وحمايته ، حتى أمره الله بالهجرة إلى أهل غير أهله ، ودار غير داره ، بعد أن أجمع ملؤهم على قتله ، ليستريحوا منه فلم يفلحوا ، ومع ذلك كله لم تكف قريش عن ايذائه ، وطلبه حيثما كان ، بل غاظهم كثيرا أنه وجد دارا وقرارا ، فاعدوا لقتاله فى دار هجرته ، ليخرجوه منها كما أخرجوه من مكة ، فما الذى يصنعه رسول الله وموقفهم منه هو هذا ؟ ألا ينبغى عليه — وقد أصبح فى عز ومنعة ومال وسلاح — بعدان لم يكن — أن ينتقم من قريش فيهاجمها فى مكة ، ويقضى عليها قضاء أبديا ، أو على الأقل يستذلها ويخضعها ، وبخاصة بعد أن أذن الله له فى القتال بقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) وهى أول آية نزلت فى القتال بعدمانهى عنه فى نيف وسبعين آية ، وأمر بالصبر كما صبر اولو العزم من الرسل.

لكن رسول الله لم يهاجم ، ولكنه وقف موقف المدافع فقط ، حتى جاءته قريش فهاجمته وعند ذلك فقط قام فأنشب القتال دفاعا عن نفسه وقومه ودعوته ، وهذا هو الجهاد المشروع فى الدين الاسلامى ، وتتسع دائرته فيكون لحماية الدعوة الاسلامية والمستجيبين اليها مطلقا ، ولو كانوا فى السجون بمكة يعذبون ليعبدوا اللات والعزى (ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) وتتسع دائرة الجهاد فى الاسلام فتشمل ازالة العقبات من طريق الدعوة حتى تأخذ طريقها المشروع لها ، لأنها دعوة حق وعدل وانصاف ، يجب ألا يحول بينها وبين الناس حائل ، وتشمل قيام المسلمين بالهجوم على أعدائهم فى ديارهم ، إذا علموا أن أعداءهم يعدون اليهم ، وذلك قبل أن يهاجموهم فى المدينة المنورة ، كما حصل فى بنى المصطلق وغيرهم ، وفى نواحى الروم مثل تبوك ، مما يدل على أن موقف المسلمين من مخالفيهم فى العقيدة ليس عدائيا وانما هو موقف دفاع لا موقف هجوم

وان القتال ليس أساس العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، وانما الاساس هو السلم ، واذن الله تعالى للمسلمين بالقتال لم يك لاكراه الناس على العقيدة الاسلامية ، بل لحماية الدعوة وأصحابها فقط ؛ ولو أن مشركى قريش لم يثوروا فى وجه الدعوة ، ولم يؤذوا الداعى ، ولم يفتنوا المدعو ، ولم يهاجموا رسول الله حيث هو ، ماشهر عليهم المسلمون سيفا ، ولا أراقوا دما

أما اليهود من أهل يثرب وغيرها ، فكان موقفه ﷺ منهم يختلف عن موقفه من قريش ، إذ لم يصبر عليهم بالمدينة ، كما صبر على قريش بمكة ، أو يتركها اليهم كما ترك مكة ، لأنه كان بالمدينة قويا كثير الانصار ، ولا كذلك كان بمكة ، فقد عاهد اليهود لأول مادخل المدينة ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ودينهم ، فنقضوا العهد ، وخانوا الميثاق ، وحسدوا رسول الله على ما آتاه

الله من فضله ، وزعموا أنهم شعب الله المختار ، فكان ينبغى أن يكون الرسول منهم ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فلا يصح أن يكون الرسول من غيرهم ، ومن أجل ذلك لم يطيقوا كتمان ماأضمروا من العداوة ، بل جاهروا بذلك فى مواضع شتى : فانتهكوا حرمة الدين والمعاهدة،فى شخص امرأة ، كما حصل من بنى قينقاع باعتدائهم علنا على مسلمة قصدت سوقهم لمصلحه ؛ وخانوا الميثاق فدبروا لقطع دابر المسلمين فى شخص نبيهم ، وأرادوا اغتياله ، كما حصل من بنى النضير ، حينما ذهب اليهم ليستعين بهم على دية من قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، على مقتضى المعاهدة بين المسلمين وبينهم ، على أنهم خالفوها مرة أخرى قبل ذلك حينما طلب منهم المعونة يوم أحد،فاعتذروا بالسبت،ونقضوا العهد بتحزيب الاحزاب أو الانضمام اليهم لحرب رسول الله ، كما حصل من بنى قريظة فى موقعة الخندق ، على ماسيجىء مفصلا

ومن ذلك يتبين لك أن القتال فى الاسلام كان تدبيرا وقتيا لأسباب خاصة محدودة،وان شئت فقل : انه كان عملا سياسيا لا أصلا من أصول الدين فى بيان العلاقات بين الاسلام وغيره ، وان المسلمين اضطروا اليه اضطرارا وحملوه تحميلا ، ودينهم يأبى عليهم أن يقتلوا مخالفيهم فى العقيدة لمجرد هذه المخالفة ، ويابى عليهم أن يكرهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين ، لأنه علمهم أن العقيدة محلها القلب،ولا سلطان للقهر على القلوب ، وانما تبنى العقيدة على الاقناع بالحجة البالغة ، والاقتناع بالدليل والبرهان،فى طمأنينة وهدوء وتفكير حر وروية غير مضطربة ؛ وان اكراه الناس على اعتناق الاسلام والسيوف مصلتة على رقابهم ، لايحدث الا رفاقا أهل نفاق ، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم تقية ليس غير ، ومن ذا الذين يرضى أن يكون من شيعته من لايخلص اليه ، وهو يعلم أنه إذا وجد فرصة قلب له ظهر المجن ، وقد ينهزم عنه فى حومة الوغى فيعرضه ومن معه إلى أشد الأخطار ؟

نعم ، قام الاسلام بالسيف ، ولكن ضد السيف فان الحديد بالحديد يفلح ، وما اذن الله لرسوله بقتال المشركين لانهم مشركون ، والا فما باله يجعلهم فريقين أمام سيف الاسلام ، فريقا أوجب عليه أن يقاتلهم وفريقا لاسبيل له عليهم ، وذلك فى قوله تعالى (فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، وفى قوله قبل ذلك (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) والفريقان من المشركين ، ولو كان الشرك وحده هو جريمتهم على الاسلام ، لأمره جل وعز بقتال الجميع وقتلهم

هذا والجهاد بالمعنى السابق مشروع فى كل دين سموى ، وما كان رسول الله بدعا من الرسل ، ولا دينه بدعا من الاديان ، على أن الجهاد فى الاسلام كان على وجه أخف ، فليس فيه : لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاما ، بل سيفا ، وليس فيه : فان لم تسالمك (يتحدث عن مدينة) بل عملت معك حربا ، فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بالسيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل مافى المدينة ، فكلها غنيمة لنفسك ....)

على أن للجهاد فى الشريعة الاسلامية شروطا وآدابا ليس هنا محل بيانها

وباستعراض آيات الكتاب العزيز فى القتال تتبين جليا أن شرع القتال فى الاسلام ماكان بالهجوم ابتداء ، ولكنه كان للدفاع ، كما يتضح أن أهل الاسلام لايصح لهم بحال أن يرغموا أحدا من المخالفين على اعتناقه

ومن ذلك : قوله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين ، وقوله : فقاتل فى سبيل الله لاتكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا . وقوله : لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، وقوله : افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وقوله : ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقوله : فان اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان

عليك الا البلاغ، وقوله: ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة ، كانه ولى حميم

وكذلك باستعراض غزوات رسول الله وسراياه ، وكلها يظهر فيها الدفاع من جانب المسلمين حتى غزوة بدر ، لأن أبا جهل — كما ستعلم — عرض عليه أن يرجع وقد نجت العير ، فأبى الا الذهاب إلى بدر ، ولو أن رسول الله رجع — وقد علم أن قريشا خرجت — لقوى اعداء الله من قريش ، واستخفوا به ، ولطمع فيه يهود المدينة ، وحملوه وأصحابه ماتحملوا من أذى قريش إياهم بمكة ، وبعد هذا وذاك لايكون القول بقيام الاسلام على القتال والسيف واراقة الدماء الا مكابرة واتهاما .

وقد ذهب فريق من فقهاء المسلمين والمتصدرين لتأويل آيات القرآن المجيد ، إلى أن الاسلام جاء لصلاح العالم وطمأنينته فيجب نشره بأى وسيلة ، وأجبار المخالفين فى العقيدة على اعتناقه ، والا فالخير كل الخير أن يقاتلوا ويقتلوا حتى يسلموا ، وأستدلوا بآيات الله فى قرآنه ، وقالوا إن آيات العفو والصفح نسختها آيات الأذن بالقتال ، وأن الآيات التى جاءت فى القتال مقيدة ، نسختها الآيات الأخرى المطلقة .

كما استدلوا بحديث : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله ، فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها .

ومع أن ماذهبوا إليه قد اتخذه أهل الملل الاخرى طريقا إلى التدليل على همجية الاسلام ، وقيامه على الدماء يسفكها ، وعلى الآمنين فى أوطانهم بازعاجهم وأرغامهم ، فانهم قالوا بالنسخ فى آيات أنزلها الله متوالية فى وقت واحد ، مترابطة متناسبة لغرض واحد ، فكيف يكون المتقدم منها ينسخ المتأخر ، أو التالى ينقض المقدم . والحق أنها جاءت يتمم بعضها بعضا ، فمنها مايأمر بقتال المقاتل ، فيكون الغرض منها الدفاع لا الهجوم ، ومنها مايأمر بان يقاتل

المسلمون كافة كما يقاتلهم المشركون كافة ، ومنها مايقرر الغاية التى ينتهى اليها القتال كآية الجزية ؛ ولو أن القتال فى الاسلام كان لحمل الناس على هذا الدين أو لقتل المخالفين بلا قيد ولا شرط ، مانهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان والشيوخ والمرضى والرهبان ، كلما خرج الى غزوة أو أرسل سرية .

أما الحديث ، فالمراد من الناس فيه مشركة العرب وحدهم لا عامة الخلق ، لم يرض رسول الله منهم شيئا الا الاسلام ولم يوسط الجزية كما فعل مع غيرهم ؛ وذلك لوجوه : —

(١) أنهم غالوا فى عدوانهم على المسلمين . (٢) أنهم أقوى على مناوأة الدعوة من غيرهم لشجاعتهم وقوة بأسهم ؛ فلذلك كان السيف أنفع فيهم وأجدى على المسلمين ؛ حتى يذل العرب ويخضعوا ؛ فتملى عليهم أوامر الاسلام املاء فلا يجدوا مناصا من تقبلها مرغمين (٣) أن يكون السيف لحملهم على الاسلام ؛ فى نظير قيامهم بحمل الناس على الشرك ؛ وفتنتهم عن دينهم ؛ ولم تجد معهم وسائل السلم مع أنهم الذين بدءوا بالقتال . (٤) لأن دين العرب كان لايقوم على أساس صحيح يرجى من ورائه للانسانية خير ؛ بل هو خطر على الناس ؛ وما بالك بدين ابتدعوه يعبدون اللات والعزى وهى أسماء مانزل الله بها من سلطان (ان يتبعون إلا الظن وماتهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) ؛ أو يقول بوأد البنات وقتل الاولاد واستباحة الاعراض ؛ وأكل أموال الناس بالباطل ؛ حقا ان تركهم على هذا مع القدرة جناية عظمى (٥) انهم وهم أهل الفصاحة وأساطين البلاغة لم يعترفوا صاغرين باعجاز القرآن العظيم (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) فاذا ألتمست المعذرة الى غيرهم من العرب والعجم ؛ الذين لايقيمون للبيان وزنا ؛ فانه لايصح أن نلتمسها لهم ؛ لذلك لم يعطهم المسلمون إلا السيف ان امتنعوا عن الاسلام .

أما توسيط الجزية فى القتال فلم يك لحمل الناس على الاسلام ؛ بل ان المحاربين كانو اذا اشتدت عليهم الحرب فانهزموا ؛ حقنوا دماءهم من المسلمين بأحد الأمرين : فاما الأسلام الذى يجعلهم اخوة المسلمين فى كل شىء ؛ واما الجزية التى كانت على المغلوب فى جميع العصور ، (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا) وذلك ليستعين المسلمون بها على حمايتهم ، على أنهم إذا عجزوا عن تلك الحماية أوقام أهل الجزية مع المسلمين فى الحروب ، سقطت الجزية عن دافعيها ، ولو أن الغرض حمل الناس على الأسلام ، مارضى المسلمون منهم وقد غلبوهم إلا بالأسلام .

وقد قال المتطرفون فى شرع القتال فى الاسلام كثيرا ، وكأنه سنة رسول الله وحده من دون النبيين السابقين ، ومن ذلك أنهم عللوا إسلام حمزة وعمر تعليلا غريبا ، وزعموا أن المسلمين أغتبطوا بهما ليجردا سيوفهما فى رقاب المشركين لحملهم على الأسلام ، وماكان إسلام حمزة بادى الرأى إلا لغضبه للعصبية فقط ، وماكان إسلام عمر الا لاقتناعه بمعجزات القرآن الكريم حينما تلاه .

وقالوا كانت حروب المسلمين استعمارية ، ولو أنصفوا لقالوا: كانت حروب الأخذ بناصر الشعوب المظلومة أن تظل تئن من جراء العسف والجبروت ، لتعمر بلادهم بهم ، فان الظلم مؤذن بخراب العمران ، بل وما الذى يضير المسلمين ــ وقد أجتمعت كلمتهم ــ أن يستنزلوا أهل العسف عن كراسيهم ، ويحلوا محلهم ليحكموا بين الناس بما أنزل الله ؛ ومابالهم لايتوسعون فى الملك والسلطان فمن ذا الذى يحرم عليهم الملك والسلطان ؛ وفرق بين هذا الغرض وبين الحروب تكون للدين ومن أجله فقط .

وقالوا : قد حارب أبو بكر المرتدين ؛ وهو لم يحارب الا المسلمين لا أهل الملل الأخرى ، فهو إنما أراد تطبيق قواعد الأسلام على من دخله ثم أرتد ؛ وقد استن هو والخلفاء الراشدون من بعده سنة نبيهم فى غزو الروم والفرس

عطفا على الشعبين ورفقا بهما ليرفع ظلم القياصرة والاكاسرة الذى كان قد بلغ إذ ذاك أشده .

وبعد فلعنا فى هذه السطور قد بينا أصل شرع القتال فى الأسلام ؛ وانتهينا إلى أنه كان دفاعا ولم يك هجوما ؛ « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا أهتديتم » .

ولعلك تستفيد من هذا الملخص : —

(١) لم يؤذن الرسول الله فى قتال قبل بيعة العقبة الآخرة ، وإنما أمر بالدعاء الى الله وانذار عشيرته والصبر على الاذى والصفح والاعراض عن الجاهلين .

(٢) ولما هاجر الى المدينة وعلا شأنه وقوى بالانصار والمهاجرين ؛ شرع يعترض قوافل قريش ؛ ليعوض على المهاجرين أموالهم التى كانت نهبا لقريش بمكة ؛ وليقطع عن قريش طريق الكسب من الشام حتى لاتقوى باموالها فى الاعداد لرسول الله « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ؛ وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

(٣) ثم أذن له بقتال قريش ومن انضم اليهم من نصارى العرب وغيرهم ؛ لتعاون الجميع وتحالفهم على رسول الله وخروجهم اليه حيث هو « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »

(٤) ثم أخذ يخرج لبعض قبائل العرب فى جهات شتى ليعلموا أن بالمسلمين قوة فلا يحالفوا قريشا ويحالفوه كما فى غزوه ودان لموادعة بنى ضمرة من كنانة ؛ وغزوة العشيرة ليوادع بنى مدلج من كنانة ؛ أو ليقتص من المعتدين على المسلمين كما حصل من عضل والقاره ومن أهل بئر معونة ومن صاحب مؤتة ؛ أو ليعاجل العدو الذى يستعد للهجوم على المدينة كما فى غزوة بنى المصطلق من خزاعه .

(٥) وقاتل اليهود عامة ليأمن المسلمون من كيدهم وكيد حلفائهم من

المنافقين وقريش ؛ وكثيرا ماحاول اليهود التعنت فى أسئلة يتحدونه بها ؛ ليفتنوا المسلمين عن دينهم إذا أفحموه ؛ وهذا إلى عملهم المستمر فى نقض المعاهدة التى كانت بينهم وبين رسول الله والمسلمين .

(٦) وغزا قريشا بمكة لأنهم نقضوا عهد الحديبية ؛ كما غزا هوازن وثقيفا لأنهم أعدوا له حينما بلغهم أنه انتصر على قريش بمكة .

وفى هذا كفاية لمن تأمله .

غزوات رسول الله وسراياه

قد اصطلح أهل السير النبوية على تسمية مايخرج فيه رسول الله ﷺ مع أصحابه الى أعدائهم ؛ غزوة ؛ ومايبعث فيه بعوثه من غير أن يصاحبهم ؛ سَرِيّة ؛ ولكنهم أحيانا يسمون كل خرجة غزوة

وقد كانت السرايا والغزوات قبل بدر الكبرى للارهاب ؛ حتى يبين للاعداء أنه أصبح فى قوة يستطيع بها الدفاع بله الهجوم ؛ ولذلك كان عدد الذين يخرجون قليلا ؛ من الثلاثين الى الستين غالبا ؛ وقد يكونون من المهاجرين دون الانصار ؛ حتى يرى القرشى أخاه القرشى أو قريبه أو نسيبه أو حليفه أو مولاه ؛ فتعمل العاطفة عملها فى حسن التفاهم . فيحقن بعضهم دم بعض ؛ وتذهب الحفيظة ؛ وتحل محلها صلة الرحم ؛ فيدخلوا فى الاسلام ؛ ويتحقق للمسلمين مايريدونه من انتشار هذا الدين الحنيف ؛ وهذه أمانى لم تتحقق . إذ لم ترض قريش الابار اقة دماء المسلمين ؛ ولو كانوا من ابنائهم أو اخوانهم أو عشيرتهم . فلما انتهت غزوة بدر الكبرى بانتصار المسلمين على قلتهم وكثرة قريش ؛ دوى ذلك فى أطراف الجزيرة العربية . فاستعدت القبائل كلها لما عسى أن

يكون بينها وبين رسول الله من قتال

واعلم أن بين أهل السير خلاف فى ترتيب الغزوات والسرايا وتقديم بعضها على بعض

هذا ولما أذن الله لرسوله فى الجهاد بعد أن استقر بالمدينة ، واجتمع عليه أصحابه وقاموا بنصره ، وصارت المدينة دار اسلام ومعقلا يلجئون اليه ، بعث البعوث والسرايا وغزا بنفسه

وكان عدد مغازيه سبعا وعشرين ، قاتل فى تسع منها بنفسه ، بدر واحد والمريسيع والخندق وقريظة وخيبر وفتح مكة وحنين والطائف ، على أن مكة فتحت عنوة ، وكانت سراياه سبعا واربعين والسرية هى التى تخرج بالليل .

وسنقتصر على أهم ما كان من الغزوات والسرايا

سرية حمزة — أول البعوث

بعث رسول الله على رأس سبعة أشهر من الهجرة عمه حمزة إلى سيف البحر من ناحية العيص . فى ثلاثين راكبا من المهاجرين . ليس فيهم من الانصار أحد ، فلقى أبا جهل فى ثلثمائة رجل من أهل مكة ، فلما تصافوا . حجز بينهم مَجْدِىّ بن عمرو الجهنى ، وكان موادعا للفريقين ، فلم يحصل قتال ، وكان ماصنعه الجهنى من الحكمة ، للبون الشاسع بين الفريقين فى العدد ، فكان ميمون النقيبة مبارك الامر .

غزوة وَدّان — أول المغازى

ثم سار رسول الله الى ودّان بالابواء ، فى ستين رجلا من المهاجرين يريد قريشا وبنى ضَمرة ، فكانت النتيجة موادعة بني ضَمرة على أنهم

من مكة الى المدينة
لبيان منازل النبي صلى الله عليه
وسلم في طريقه الى دار الهجرة
وفيها مواضع بعض غزواته وسراياه
طريق الهجرة
المدينة المنورة
قباء
وادي القرى
ينبع النخل
بدر
الأبواء
ذات عرق
عرفات
مكة
جدة
الطائف

لايغزونه ولا يكثرون عليه جمعا ولا يعينون عليه عدوا ، عقد ذلك مع سيدهم مَخْشِى بن عمرو الضمرى

غزوة ذات العشيرة

ثم خرج الى ذات العشيرة لبنى مدلج بجهات ينبُع ، يريد عير قريش التى صدرت من مكة الى الشام بالتجارة ، وكانت قريش قد جمعت أموالها فى تلك العير ، فخرج اليها ليغنمها ، فوجدها قد مضت ، وهى العير التى خرج اليها حين رجعت من الشام فكان بسببها وقعة بدر الكبرى ، ووادع بنى مدلج وحلفاءهم بنى ضمرة ، وكلا من كنانة

سرية أمير المؤمنين عبد الله بن جحش

بعث رسول الله سنة اثنتين عبد الله بن جحش فى ثمانية ، وكتب له كتابا وفيه يأمره بنزول نخلة بين مكة والطائف ، فيرتصد قريشا ويعلم أخبارهم ، فسار ، وهنالك مرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما ، وفيها عمرو بن الحضرمى ، فتشاور المسلمون وقالوا نحن فى آخر يوم من رجب ، وان تركناهم الليلة ، دخلوا حرم مكة ، فأجمعوا على قتلهم ، فقتلوا عمراً ، وأسروا رجلين الحكم بن كيسان مولى عمرو ، والد أبى جهل ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، واستاقوا العير ، فكانت أول غنيمة فى الاسلام ، ولما عادوا إلى المدينة ، قال لهم رسول الله ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام (رجب) ، فسُقِط فى أيديهم ، وعنفهم المسلمون ، وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير) الآية ، وفرج عن المسلمين ، وقبض رسول الله الغنيمة ففرقها على غانميها ، وبعثت قريش

فى فداء الاسيرين ، وكان سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان من أهل هذه السرية قد ضلا ، فقال رسول الله لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فانا نخشاكم عليهما ، فقدما بعد أيام ، ففداهما رسول الله كل واحد بأربعين أوقية . وأسلم الحكم ، وبقى عند رسول الله ، وذهب الآخر إلى مكة فمات كافرا

تحويل القبلة : ثم حولت القبلة إلى الكعبة ، وكان لتحويلها عن بيت المقدس ثورة فى نفوس الكفار والمنافقين واليهود ، وقالوا : (ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها !) فأنزل الله تعالى جوابهم فى قوله : (قل لله المشرق والمغرب) ، وقالت اليهود اشتاق الى بلد أبيه ، وهو يريد أن يرضى قومه ، مع أنهم يعرفون أن قبلة النبى الذى يبعث من ولد اسماعيل ، قِبَلَ الكعبة ، كذلك هو مكتوب عندهم فى التوراة

وتحويل القبلة ـ وان كان من أمر الله تعالى لايجب تعليله ـ له حكم ، منها : ان اليهود كانوا يعيرون المسلمين عند استقبال بيت المقدس ويقولون : لولا أنا أرشدناكم الى القبلة ماكنتم تعرفونها ، وهذا ونحوه كاف لصرف المسلمين إلى الكعبة بناء أبيهم ابراهيم .